الرؤيا و درجة الإيمان عند الصوفية

الأستاذة : ملوكي جميلة
جامعة تلمسان

إن الرؤيا ومنذ أقدم العصور احتلت مكانة هامة ومرموقة في اهتمامات الانسان وقل أن كانت ماولات تفسيرها تيتعد عن المعتقدات الدينية وقد تعددت أراء المهتمين بها من عوام و فلاسفة و رجال دين وتراث شعبي ومتصوفة إلا أن هذه الفئة الأخيرة اي المتصوفة أفطو في نظرتهم للرؤيا بل أعطوهاطابعا و أساسا دينيا مميزا يظفي عليه طابع القدوسية واعتبرها خدمة للقيم الصوفية بل خدمة لمحاولة التقرب من الله تعالى او النبي الكريم

فالرؤيا عند المتصوفة هي نوع من أنواع الكرامات يحقق بواسطتها الصوفي خواطر ترد على القلب و أحوال تتصور في الوهم و هي بمثابة قوة للقلب و بصيرة ترى بها حقاءق الأشياء و بواطنها و ظواهرها بل هي تطابق مع الواقع و استمرارية له حيث ون خلالها يتم إدراك ما يقع في الغيب واستكشافه

إن الطبيعة الرؤيا عند الصوفي تختلف عن العامي فهم يعتبرونها نتيجة صفاء روحي وزتعمق تأملي في دقاءق الأشياء

وهي طريقة من طرق الصوفي لكي يرتبط بالله ويتقرب من النبي قيمة ومعرفة وسلوكا .

وإذا :

- ما حقيقة الرؤيا في التجربة الصوفية

سوف نتاول في هذ المداخلة 3 أبعاد أساسية وهي :

1-إستعمال الرؤيا كمحدد للتلقي والإستدلال

2-الرؤيا كأساي لحصول المعرفة

3-إستعمال الرؤيا كواسطة للتواصل و الاستمرارية

يطلق الإسلام على الحلم إسم الرؤيا . والرؤيا مصد رار وهي تدل على إدراك مخصوص وفرق الدين الإسلامي بين مصدر المعنيين . فالله تعالى يخلق في قلب النائم إعتقادا كما يقلق صافي قلب اليقظان. فقد تكون هذه الصور المنحذرة صادقو وصالحة وتسمى رؤية ويظلف إليها إسم الشيطان . وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» .

وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا فقبل : « هي إدراك في أجزاء تحلها افة كالنوم المستغرق وغيره و لهلذا كثيرا

ما تحدث الرؤيا في اخر الليل لقلة غلبة النوم فيخلق الله تعالى للرؤيا علما ناشئا ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصبح الإدراك»2

فليس كل ما يراه الإنسان في نومه قد يكون من الرؤيا. فالرؤيا تتعلق بتحقيق روحي رفيع . يقول ابن سينا في رسالة «معرفة النفس الناطقة وأحوالها» « إن الانسان في نومه ربما يرى الأشياء ويسميها، بل يدرك الغيب في المقامات الصادقة بما لا يتيسر له في اليقظة « 3

وفي هذا الباب تدخل الرؤيا الصوفية التي تحدث عن طريق صفاء روحي رفيع وعلم بليغ و متى اجتمعت هذه الحقائق صارالغيب عند صاحبه عيانا . قال تعالى « ما كذب الفؤاد ما رئى «4(النجم 11)

والفواءد من الفائجة لأنه يرى من الله عز وجل فوائد حبه، فيستفيد الفوائد بالرؤية . ويتلدد القلب بالعلم. وينور البصر بالمشاهدة . وحقيقة الرؤيا عند المتصوفة هي«نوع من أنواع الكرامات و تخقق الرؤيا خواطر ترد على القلب و أخوال تتصور في الوهم إذ لم يستغرق لنوم جميع الإستشعار، فيتوهم

الانسان عند اليقظة أنه كان على رؤبة في الحقيقة، وإنما كان ذلك تصورا وأوهاما تقررت في قلوبهم وحي زال عندهم الإحساس الظاهر تجردت تلك الأوهام عن المعلومات بالحس والضرورة، فقويت تلك الأحوال التي تصورها إن المستيقظ يتذكر ما كان نتصورا له في حال نومه، ثم إن تلك الأحاديث والخولطر التي كانت ترد على قلبه في حال نومه تكون من قبل الشيطان. ومرة من هواسج النفس بواخطر الملك ومرة تكون تعريفا من الله تعالى بخلق تلك الأحوال في قلبه 5

والذي يترتب عن هذا التعريف هو أن الرؤيا عند المتصوفة هي نوع من أنواع الكرامات و هي عندهم ثلاث :

- رؤيا من الله تعالى و هي الرؤيا الصرحة التي لا تحاج لتأويل
- رؤيا من الملك وهي رؤيا صادقة تحتاج إلى التعبير.
- رؤيا من الشيطان وهي أضغاث أحلام.

وقد اعتبر الصوفية الرؤيا التي هي من عند الله و الملك بمثابة قوة للقلب و بصيرة ترى بها حقائق الأشياء وبواطنها وظواهرها .

«الرؤيا وجه اخر للكرامة ... يتمم الصوفي في نومه ما يفعله في اليقظة أي انه يبقى فوق المألوف ، مقدس ، فبرؤياه يحل كل مشكلة ويعطي كل عجز من بعد وفاته»6.

وفي ضوء الرؤيا ومصطلحي الخاطر والبصيرة، عدت الأحلان التنبؤية تعبيرا عن الفعاليات الروحية الفائقة « 7

فالرؤيا هنا في تطابق مع الواقع بل استمرارية له . ومن خللها يتم إدراك ما يقع في الغيب واستكشافه. وقد إستعمل النتصوفة مصطلح الطشاهدة كذلك وميز بينه وبين الرؤيا .

«الرؤيا تكون في المظاهر الكونية الحسية والخيالية، والفرق بين الرؤيا والمشاهدة لابد أن يقدمها علم بالمشهود، بخلاف فلا يشترط أن يتقدمها علم بالمرئي فكل مشاهدة رؤية ولا ينعكس «8

وهنا طبيعة الرؤيا عند الصوفي تختلف عن العامي أو البقية فهم يعتبرونها نتيجة صضفاء روحي وتعمق تأملي في دقائق الأشياء و المشاهدة تكون نتيجة المجاهدة الترقي و بين

الأحوال والمقامات وأما الرؤيا فلا يشترط فيها التقدم، وقد يشترك في الرؤيا الصوفي وغير الصوفي .

بل وعلى أكثر من ذلك يقدس الصوفي الرؤيا فلا شك أن النبي عليه الصلاة و السلاتم أعطى أهمية كبيرة للرؤية واعتبرها من الله ، بل جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة : كما ذكر ذلك في الحديث الصحيح عن النبي الكريم حيث يقول:» إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأرعين جزء من النبوة».9

ولكن الصوفي اعتمدها كنافذة على الروحي أو كجسر بينه و بين الغيب، بل أعطى كبار الصوفية لرؤياهم قيمة كبرى لرفع الذات والتقرب من الله ومجاورة النبي صلى الله عليه وسلم .

وهكذا فإن الصوفي قد يداور بواسطة الرؤيا النبوة . ومنهم من وضغ نفسه مقام الأنبياء (البسطامي والسهروردي)

يقول الدكتور علي زيعور في كتابه' الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم' : « بالكشف يرى الصوفي الملائكة وأرواح الأنبياء ، فيخلطب هؤلاء ويشاهدهم ويقتبس منهم فوائد، ويسمع أصواتهم وهو في حال من اليقظة والوعي ، أما الرؤيا فتتم في النوم، وهنا تزول المسافة بين الئي والغيب، يخاطبه الله ويجري حوار، وهطذا يتوحد في الروح الصوفية عالما ويصعد في معارجه فوق الأنبياء حتى يبلغ الله».10

إن هذه الخصوصية التي يتميز بها الصوفي والمكانة التي يوليها لرؤياه تجعلنا نتعرف ومن خلال هذا الغالم على لا وعي الصوفي وعلى واقعه كما أن طريقة تفكيره هذه تكشف لنا عن شخصية وعلى تدرجه في التطور الروحي، وتصور لنا القيم الصوفية بألوان متميزة خاصة الانا الفردية التي ترعي عالم الملكوت.

فالمنامات والرؤيا عند المتصوفة تعتبر أكثر المصادر إعتمادا على في التلقي .بحيث يتلقون فيها عن الله عز وجل ورسوله الكريم أو أحد شيوعهم بعض أحكام الشرع، أو التنبؤ بمصير أمر ما ، وهي من المبشرات للحصول عبى المعرفة وهذه

الطريقة تعتبر من أبر الرموز المعرفية التي يهبها الله العارف للمتصوف حبيث لا تأتي له أثناء النوم فحسب بل قد تنشط مخيلته في حال الفناء والوجد ، وكما ياتي النبي الوحي في اليقظة كذلك يؤتى الصوفي المعرفة في اليقظة عن طريق المغارج أو الإسراء الروحي .حيث تكون رحلة العارف للمعرفة من بدنه وذاته إلى مواطن المعرفة والحقيقة وذلك بواسطة طاقة لا تتوفر إلا لذى من يمتلكون هذه القدرة وطاقة الخيال المنفصل التي يخترق بفظلها الوجود بكا مراتبه وحجبه إلى أن يصل إلى الحقيقة العمياء و المعرفة المطلوبة .

إن الرؤيا عند المتصوفة من المبشرات كحصول المعرفة ولاكتساب أكبر عدد ممكن من الاتباع مما يتيح للمتلقي فرصة إستثمار معرفة وقناعة لتأويلها وبالتالي طريقة لتفعيل التواصل.

و العقد المسبق عبى تقديس الرؤيا بأنها من الله ، هو طريق المتصوفة للتجاوب الذي يكون من طرف المتلقين عامة، وتأويلها والتصويف بها وفق الاليات المشتركة التي تمنحها الثقافة المشتركة حيث تجتمع هذه الأخيرة عبى أن رؤيا المتصوفة

هي» رؤيا صحيحة وصادقة وقوية ومخبرة وهاتجة ومحققة ومن الله تعالى»11

فأما صحيحة لأن معانيها مستقيمة ومشاهدوها روحية عالية وأما صادقة لأن رائها بلغ أرقى درجات الأيما ن والصدق .

وقوله بأن صاحبها قوي الايمان وعلى قجر كبير من الصلاح وروحه على قدر كبير من الشفافية .

ومصيرة لأن الله عز وجل اراد ن يميز من أحبه من الناس فأتت هذه الرؤيا هاتفة لايضاح وحل مشكلة استعصت على العامة .

ومحققة لانها تدل على كرامة صاحبها ومن الله لأنها منة على عبده الصالح وبشارة له.

إذا فإن المعرفة عند الصوفية تختلف عن المعرفة العلمية و التجربة في الأمور الحسية الملموسة في المختبرات العلمية . ف'ذا كانت المعرفة العلمية هي العلم الناتج عن التجربة العلمية وأعمال الفكر فإن التجربة الصوفية تعتبر المعرفة العلم الذي يوصل الله سبحانه وتعالى عن طريق التقوى والسلوك

الروحي الذي يكشف للعبد حقائق معروفة لذى الصوفية تجعلهم يقتربون من الله تعالى إلى أقصى درجات القرب و التي يعجز العقل عن إدراكها ، وهي المتمثلة في الفناء بمحبة (الله) حيث تصبح فيه مدارك العبد وقواه الحسية فانية معدمة بحيث لا يبقى الا نور الله عز وجل ووقتها تصبح تصبح هذه الوات لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تتحرك الا بنور الله وهم يستندون في ذلك الحديث القدسي للنبي صلى الله عليه وسلم « إن الله قال من عادى لي وليا فقد اذنته بالحرب وما تقري إلي عبدي بشيء أحب إلي مما اقترض عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ويصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها و إن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيدنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»12

فالعبد اذا وصل الى هذه المرتبة من الفناء في محبة الحق لا يعود يرى الامور ببصره بل يصبح يرى الامور بنور الله عز وجل الذي لاتحده حدود, ولا تحجبه الاشياء لقوله تعالى «الله نور السماوات والارض « 13

وهذا يعني أن تجربة المعرفة الصوفية هي تجربة روحية خارج حدود العقل المنطقي .

ومن قبيل الرؤيا عند الصوفية , ما تحدث بعضهم عنه بشأن الاسراء الروحي ,حيث يدهبون الى ان أولياء الله يسرى بأرواحهم في افاق الارض والسماء, فيشاهدون في هذا الاسراء صورا تمثل معاني مجسدة فيستلهمون منها ما شاء الله لهم ان يستلهموه من المعرفة والحكمة.يقول ابن العربي « ....وأما الاولياء فلهم اسراءات روحانية برزخية يشاهدون فيها معان متحسرة في صور محسوسة للخيال ,يعطون العلم بما تضمنه تلك الصور من المعاني»14

وهناك امر بالغ الاهمية عند الصوفيةوهو تلازم الرؤيا لديهم بين النوم واليقظة , فما هو معرف عن الرؤيا عند العوام هو ما يراه النائم أثناء نومه , ولكن للصوفيته رأى أخر في هذا الشأن .فعالم الرؤى عندهم غير محصور بحالة النوم فقط ,بل في النوم واليقضة معا , وذلك حسبهم لمن وصل الى مرتبة اليقضة ,وهذه المرتبة يكون فيها العبد في حضور دائم مع الله تعالى . وهذا الامر يعني أن هذه الطائفة من المتصوفة ليلها كنهارها, ويقظتها كمنامها , ورؤياها كرؤيتها,15

وهنا في هذا المقام يصف حضرة السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني أصحاب هذه المرتبة قائلا :» أهل اليقضة رأوا الله عز وجل بقلوبهم فالجتمع شتاتها ... تساقط الحجب بينهم وبينه ومحيت المباني وبقيت المعاني ...فلم يبقى سواى الحق عزوجل» 16

ويقول عنهم في نفس المصدر في كتابه المصدر الرباني :

وهذا يعني أن هناك فرق كبير بين رؤيا بالعوام من الناس ورؤيا الخواص والحقيقة أن باب الرؤيا واسع جدا عند الصوفية, وفروعه كثيرة فهناك التجلي الذي يعد وضربا من ضروب الرؤيا , واقسامه لا تعد ولا تحصى, وهناك الشهود ... وجميع هذه المراتب تكشف لنا مدى عمق هذا العلم وخلفيته الروحية عند الصوفية خاصة وهو من العلوم البرزخية الرابطة بين الغيب والشهادة .

أو هذه الرؤيا تتعلق بالعلاقة بين الصوفي وربه , وكثيرا ما نقرأ عن رؤية الصوفي شيخه في المنام وهنا تصبح الرؤيا الرباط الوثيق الذي يجمع المريد بشيخه, وعليه فان تأويل رؤيا يعد من أهم واجبات مرشدي الصوفية قاطبة, وان جاز القول فانها تمثل الركيزة والمحور الذي تقوم عليه الطريقة الصوفية,

وهنا العلاقة تكون جد قوية وشديدة بين مشايخ الصوفية ومريدهم ,حتى ان بعضهم زارهم النبي صلى الله عليه في المنام ليشير عليهم بالشيخ الذي ينبغي أن يتبعوه, كما قد يظهر احد الاولياء الصالحين في المنام ليقوم بهذا الدور والمتبع لهذه الاموريجد أنها تتسلسل وتتواصل عبر الاجيال لختارالمريد شيخه المناسب له.

ومن قبل ماروي عن الحاج عمرالسنغالي « الذي رأى مؤسسة الطريقة التجانية الشيخ – أحمد التجاني – في المنام , وبعد ادائه فريضة الحج قبل دعوة شيخ الطريقة التجانية في الحجاز, ثم أصبح مريدا من مريديها «17

ولا تقتصر رؤيا الصوفية للقبول في الطريقة الصوفية على هذا المشهد بل نقرأ في العديد من المؤلفات الصوفية عن المشهد الذي يرى فيه المريد وكأن شيخه يلبسه الثوب المرقع وغطاء الرأس المباركومنح الثوب المرقع في المنام على انتقال البركة من المانح الى الممنوح.

وهذا اذا ما يدل فانما يدل على أن الصوفي يستعمل الرؤيا كواسطة للتواصل والاستمرارية, فالانفصال عن طريق الموت لدى الصوفية عن شيوخهم ماهو الا تنوع من الانفصال

المادي الظاهري الذي يعوق استمرار حدوث مقابلات والتلقي بينهم .

وخلاصة القول ان الرؤيا الصادقة عند المتصوفة الحقيقين هي نوع من النبوة الروحية التي يورثونها الاولياء والصالحين حسب مراتبهم ودرجاتهم عند الله عز وجل , وهو ما يعني انه من العلوم الخاصة, وليس من المتيسر على العوام, بل حتى بعض الخاصة من المريدين وغيره الاطلاع عليه.

فقد كشف الصوفية لنا حقيقة هذا العلم حيث حدد وبالضبط المرتبة الوجودية والمعرفية التي ينبع منها هذا العلم, بين الروحانية المحضة والمادية الصرفة ,وتعاملوا معه بالملكات الباطنية التي تتناسب معه.

وقد اشار الى ذلك الشيخ محمد الكسنزان من خلال تلخيص أسرار هذا العلم , وكشفه عن التلازم بين علم معرفة النفس وبين علم الرؤيا , ومعنى هذا أن أسرار هذا العلم ورموزه متغيرة من شخص لاخر والسبيل الى معرفتنا هو من خلال معرفة النفس أولا, وهذا يتطلب خوض التجربة

الصوفية التي تكشف للانسان حقائق الحق والخلق معا , وليس رؤيا الاحلام فحسب.

الهوامش:

1. القرآن الكريم
2. سليمان الدليمي ((عالم الاحلام))تفسير الرموز و الاشارات دار الكتب العلمية –بيروت لبنان الطبعة الاولى سنة **2006**ص**98**
3. احمد فريد ((تعجيل السقايا في تعبير الرؤيا)) دار الدعوق السلفية الاسكندرية الطبعة الاولى سنة **1990**ص**6**.**7**.
4. د: عبد الستار عز الدين الراوي((التصوف والبارسايكولوجي)) المؤسسة العربية لدراسات والنشر لبنان –بيروت الطبعة الاولى سنة **1994** ص**63**
5. سورة النجم الاية **11**
6. د: رفيق العجم ((موسوعة مسطلحات التصوف الاسلامي)) مكتبة لبنان.ناشرون. الطبعة الاولى سنة**1999** ص **375**
7. د: علي زيعور ((الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم)) القطاع الاوعيفي الدات العربية. دار الاندلس لطباعة ونشر بيروت لبنان الطبعة الثانيةسنة **1984** ص **253**
8. عبد الستار عزالدين الراوي ((التصوف والبارسايكولوجي)) ص**64**
9. سميح دغيم ((موسوعة المسطلحات الفكر العربي الاسلامي المعاصر)) الجزء الاول .مكتبة لبنان .ناشرون, الطبعة الاولى سنة **2002** ص **556**
10. محمد بن سيرين ((تفسير الاحلام الكبير)) دار الفكر لطباعة والتوزيع بيروت لبنان سنة **1998** ص.**17**.

11. د: علي زيعور((الكرامة الصوفية الاسطورة والحلم)) ص.**256**
12. احمد عوض الله ((احلام الانبياء والصالحين)) دار الازهر لنشر القاهرة الطبعة الاولى سنة **1969** ص**9**
13. حديث قدسي اخرجه البخاري عن ابي هريرة في كتاب « الرقاق» الحديث رقم:**6012** (
14. سورة النور الاية:**35**
15. د: والشيخ محمد الكسنزان الحسين ((الرؤى والاحلام في المنظور الصوفي)) مؤسسة دار القادري لنشر والتوزيع. سوريا الطبعة الاولى سنة **2008** ص**39**
16. المصدر نفسه ص**291**
17. الشيخ عبد القادر الكيلاني ((الفتح الرباني والفبض الرحماني)) ص**187**
18. المصدر نفسه ص **182**
19. أنا ماري شيمل ((الاحلام وتفسيرها في الثقافة الاسلامية)) ترجمة حسام الدين جمال بدر, وآخرون دار المنشورات الجمل بغداد الطبعة الاولى سنة **2005** ص**259**.